

## نظرة تاريخية للعلاج النفسي ومراحل تطوره

### تمهيد:

قبل أن تصل المجتمعات الإنسانية إلى وضعها الحضاري الراهن، مرت بأزمات كالحروب والمجاعات والأوبئة والكوارث، وكان لها آثارها القاسية في حياة أفرادها. ومع التطور الحضاري ظهرت حركات واعية تهتم بالفرد الإنساني من جوانب عدة: صحية واجتماعية وصحية نفسية. ومع هذا التطور في وعي حاجات الفرد، ظهر تطور آخر في العلوم المختلفة، يهمنها منها العلوم الصحية والنفسية والتربوية التي ساعدت على توجيه العناية إلى صحة الفرد النفسية ووقايتها. وظهرت المدارس المختلفة التي تهتم بها، وكان من ذلك ظهور علم العلاج النفسي.

وعلى هذا فإن الاضطرابات النفسية التي تصيب الفرد ليست حديثة العهد في حياة البشر، ولكنها قديمة. وقد وقف الإنسان من هذه الظاهرة مواقف بدائية في أول الأمر، ثم تطورت هذه المواقف في اتجاه إنساني، انتهت إلى ما نسميه بالطب النفسي، ثم إلى العلاج النفسي. وكان هم المهتمين بالاضطرابات النفسية منصباً على التعليل والتفسير من جهة، وعلى ممارسة العلاج من جهة ثانية.

إن أقدم موقف للإنسان من الاضطرابات النفسية يربط بينها وبين غضب الآلهة حيناً، وبينها وبين رضاها حيناً آخر. ولذلك فقد اعتقد أن شفاءها يحتاج إلى طقوس دينية، فهناك كلمات تقال، وأشكال من التعويذات، والممارسات التي تتجه إلى الأرواح الشريرة حتى تطرد من جسم المريض<sup>(١)</sup> والمجذوب لم يسمَّ مجذوباً إلا لأن الجن قد جذبه إليهم وأخضعوه لإرادتهم، وبحسب هذا التفكير لأبد من ضربه وتعذيبه استرضاء للآلهة، وطرداً للأرواح الشريرة من جسده. وقد رافق هذه الممارسات أيضاً، استخدام بعض العقاقير النباتية والحيوانية التي لم يثبت نجعها مع المرضى.

(١) بركات، محمد خليفة، مبادئ العلاج النفسي والصحة النفسية، دار القلم، الكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م (٢٢٢).

نلمح هذه الممارسات في الحضارة اليونانية، ونلمح معها ظهور تفسيرات إنسانية بدأت مع «أبيقراط» الذي كان يقول عن الجنون إنه ناجم عن اضطراب في أخلاط الدم الأربعة. ونلمح أثر ذلك في التشريع الذي لا يُحمّل المريض أية مسؤولية قضائية. وقد نظر معظم فلاسفة اليونان إلى المريض عقلياً على أنه يحتاج إلى عناية من أهله.

ونلمح استمراراً للتفسيرات الإنسانية في الحضارة الرومانية التي كانت تفسر الاضطرابات العقلية بالصدمات العاطفية وما تخلفه من آثار عند الفرد وقد دعا فلاسفتهم إلى العناية بالمصابين بالاضطرابات العقلية بوضعهم في غرفٍ بعيدة عن المؤثرات المزعجة، وإفهام من يزورهم أو يعتني بهم أن يكونوا لطفاء مهذبين في معاملتهم. كما سمح للمرضى بالقراءة، وشجعوا على الإسهام بالتمثيل، والتحدث مع الآخرين في اجتماعات خاصة.

ونلمح ظهور هذه النزعات الإنسانية في التعامل مع المرضى النفسيين في الحضارة العربية الإسلامية ظهوراً قوياً تجلّى في إنشاء المستشفيات العقلية «البيمارستانات» في دمشق، وحلب، والقاهرة، وفاس، وغيرها من المدن في القرن الثالث عشر. وقد ارتبط بكل مستشفى عيادة خارجية ومدرسة طبية لأغراض التدريس. وكانت العناية ميدولة للفقراء والأغنياء على حد سواء. وكان الجو الذي يحيط بالمريض مريحاً جداً تتوافر فيه أسباب الراحة النفسية من حدائق، ونبابع، وحمامات، وعطور، وأدوية، وأغان، وموسيقا ...

وقد جرى في القرون الوسطى تحول كبير في أوروبا من ناحية المواقف من الاضطرابات العقلية. فمن الشعوذة في العلاج وأشكال السحر واستعمال الأغلال والقيود الحديدية في المستشفيات، تظهر أقوال تؤكد أن الجسم المريض هو الأصل في الأمراض العقلية، وأن السحر لا ينفع في علاجها. وظهر أشخاص فيما بعد من أمثال فيليب بينيل Philippe pinel في فرنسا (1745 - 1826)، و«رش» Rush في أمريكا (1745 - 1813)، فكوا القيود في المشافي، ولاقوا المقاومة من الآخرين. وتمخضت هذه التطورات عن تطور علم الطب، ووجود عدد من المدارس التي تفسر الأمراض النفسية وتعالجها نذكر منها:

١. المدرسة الفرنسية التي كانت تلج على الإجراءات النفسية في دراسة المريض وعلاجه، وعلى الصلة بين المرض العقلي والأعصاب.

٢. والمدرسة الألمانية التي بدأت تلح على الطريق النفسي كذلك، بعد أن كانت تلح على الترابط بين الجسم والنفس في الاضطرابات النفسية.

٣. والمدرسة الإنكليزية التي كانت تلح على الإجراءات العملية في العلاج، وتحسين شروط العناية بالمرضى النفسيين. وقد استفاد «فرويد» من كل التطور السابق ليبدأ اتجاه التحليل النفسي.

### نشأة العلاج النفسي باعتباره علماً وتطبيقاً:

كان اهتمام الأطباء منصباً على الاضطرابات النفسية خلال القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، ومطلع القرن العشرين. ولكن فئة أخرى استفادت من جهود الأطباء السابقة، ووجهت جهودها إلى حل مشكلات تربوية ونفسية معاً، فكانت سبباً في ظهور العلاج النفسي. والمظاهر التالية تبين هذه الجهود وفئات العاملين فيها:

١. انتباه بعض الأطباء إلى أثر العوامل الاجتماعية والنفسية في نشوء الاضطرابات النفسية وعلاجها.
٢. الانتباه إلى أثر العوامل النفسية في حياة الأفراد ولا سيما في طفولتهم في مدرسة التحليل النفسي كما ظهرت عند «فرويد» ثم «أدلر» ثم «يونغ».
- ٣- ظهور المختبرات النفسية، وأجهزة القياس النفسي، والتطور الذي أدخلته على الدراسات النفسية.
٤. التطور العلمي الذي أحدثه القياس النفسي والتربوي (الذكاء، والقدرات، والميول، والتحصيل، والروايز «الاختبارات» التي تقيس الشخص).
٥. التطور في تنظيم الخدمة الاجتماعية، وتطور حركة الصحة النفسية.
٦. التطور في مجال التربية، والاتجاه إلى أن التربية لا تحقق أهدافها ما لم تهتم باضطرابات السلوك عند الأطفال، والعناية بهم.
٧. زيادة الاهتمام بضعاف العقول والأحداث الجانحين، والمعوقين تربوياً.
٨. الاهتمام بمشكلات المحاربين العائدين من الحرب العالمية والناجمة عن عودتهم إلى الحياة الاجتماعية.

٩. النزعات الإنسانية التي ظهرت في كتابات الأدباء والفلاسفة.

١٠. التطور الذي طرأ على دراسة الإنسان وما يصيب سلوكه في حالتي المرض والصحة.

شارك في هذه الجهود عدد من البلدان، و تقدمت بسرعة في الولايات المتحدة، وإنكلترا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وسويسرا، والاتحاد السوفييتي، واليابان وأستراليا. وبدأ العلاج النفسي بوصفه علماً له أسسه وقواعده في العشرينات من القرن الحالي. وظهر في الجامعات اهتمام خاص بهذا التخصص، حتى أننا نجد حالياً عاملين في العلاج النفسي يمارسون هذا العلاج وفق طريقة خاصة من طرائقه المتعددة التي سنتحدث عنها في مكان لاحق.

### العلاج النفسي في الأقطار العربية:

عدد المختصين بالطب النفسي في العالم العربي قليل جداً. وهم يعملون إما في المستشفيات العقلية، أو العيادات الخارجية المرتبطة بها، أو في عيادة خاصة. أما العلاج النفسي فما يزال يخطو خطواته الأولى. فثمة عدد قليل من المختصين في العلاج النفسي المتخرجين من جامعات غير عربية يعملون في إطار الجامعات في التدريس أو البحث العلمي، أو في عيادة داخل أقسام الجامعة، وذلك لأن تنظيم المهنة، مهنة العلاج النفسي والمختصين فيه، وافتتاح العيادات اللازمة لذلك لا يزال في بداياته. وينتظر أن تتضافر الحاجات الملحة مع الدراسات الجامعية الموجهة بحاجات المجتمع والتنمية الاجتماعية والاقتصادية في توفير التطور في الدراسات الجامعية، وتوفير المختصين في هذا الميدان العلمي التطبيقي الهام.

أما البحوث العلمية في هذا المجال فلا تزال قليلة جداً، ولا تزال المكتبة العربية تفتقر إلى الكتب المؤلفة أو المترجمة في مجال العلاج النفسي. ولكن الاهتمام بالموضوع يتسع ويتزايد يوماً بعد يوم، يبدو ذلك في التوسع بالدراسات النفسية في الجامعات، وقيام عدد من الندوات التي تتناول هذا الموضوع<sup>(١)</sup>.

(١) الرفاعي، نعيم. العيادة النفسية والعلاج النفسي ١٩٨١.